

الفكر الإسلامي المعاصر

بين العقيدة والإيديولوجيا

أحمد الحذيري *

التاريخ المحايد في جريانه وفق قوانينه الموضوعية لا يصانع أمة ولا جنسا، ولا يقيم وزنا لماض مجيد، ذلك أن تحديد الأمم الجديرة بالبقاء يكون بالنظر إلى حاضرها، إلى ما هي عليه راهنا، والأمم الأصلح للبقاء بين كل الأمم ليست تلك التي تريد أن تستصدر من التاريخ اقرارا بجدارتها، بتعلة أن لها ماضيا مجيدا وأنها قادت البشرية لعدة قرون خلت، فلقد بادت أمم لم تكن أقل عزة قومية من العرب والمسلمين عموما، ولا أقل احتقالا بأمجادها السالفة، بادت هذه الأمم حين قصّر حاضرها عن ماضيها، واكتفت باجترار ذكرى مجدها الغابر، ولم تنتبه إلى أن تغير الظروف والاحوال، يحتم عليها البحث عن سبل التقدم بما يفرضه من مقتضيات جديدة للمجد تختلف عن مقتضيات العهود القديمة⁽¹⁾، لا بد إذن من بناء حضاري شامل يزيل كل مخلفات القرون المظلمة ويتطرق إلى كافة أركان حياتنا وزوايا تفكيرنا ومجموع مفاهيمنا وقيمنا ومتعدد علاقاتنا الاجتماعية، نمحصها بعملية من النقد الذاتي الفاحص الرصين حتى وإن بلغ درجة قاسية شديدة الإيلام.

فلم يعد يكفي العقول ذلك التعميم الإطلاقي الذي يؤكد أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان دون تفعيل واستدلال مقنعين، لا بد من تفعيل وتدقيق لنتبين: هل الإسلام صالح لعلاج مشكلات زماننا ومجتمعاتنا؟ فالعبارات الساذجة المبالغة في التفاؤل لم تعد تغني العقل الإسلامي المعاصر

* أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان (جامعة الوسط)، ألقى هذا البحث على منبر نادي الفكر بالمعهد.

فضلا عن غيره.... لذلك تأكدت الحاجة إلى التأمل في واقع المسلمين لعلنا نقف على بوادر ميلاد عهد جديد، أقول «تجمل» مشددا على هذا المصدر من تأمل يتأمل، وإن كان البعض يرى أن الوقت لم يعد يسمح بذلك لأن الحاجة متأكدة راهنا للتحرك(2). لذلك لم يخل العالم العربي الإسلامي من حركات دينية أرادت أن تعيد إلى الإسلام في العصر الحديث «مكانته

وإشعاعه في مختلف بلدان العالم»، تعددت الحركات والاتجاهات والجماعات حتى بلغ عددها حسب جدول ضبطه/برونو إيتيان/بمعية/نيكول كاتان/ في كتابهما عن الأصولية الإسلامية(3) إلى حدود 1982، ما يزيد على 38 بين حركة وجماعة وجمعية ومنظمة وتنظيم واتجاه وطليلة ومجاهدين واتحاد وحزب ودعوة.... إلخ. وهي تنظيمات تنعت نفسها بالإسلامية أو المسلمة وأصبحت فاعلة في عصرنا الحاضر على مختلف الأصعدة وفي مختلف المجالات، لذا اهتمنا ببعض هذه الجماعات التي يريد أغلبها احتكار الحديث باسم الإسلام محاولين جهدنا أن نبرز الحدود الدقيقة بين العقدي والإيديولوجي في خطاب أعلام أهم هذه الحركات في هذا الإطار المخصوص - إطار الندوة الإسلامية الثامنة عشرة بالقيروان، والتي اختارت هذه السنة محور : [المسلمون وتحديات العصر]، مع التركيز على قراءة لما جاء في مواقف حركة «الإخوان المسلمين» انطلاقا من/حسن البنا/وصولا إلى/سيد قطب/ الذي سيضطرنا الحديث عنه إلى التعرض إلى/أبي الأعلى المودودي/المنظر الهندي المسلم المعروف.

ولكن لماذا اخترنا جماعة الإخوان على وجه الخصوص؟ بعض عناصر الإجابة نجدها في عناوين العديد من الكتب المؤيدة أو المناهضة أو التي تحرص على التزام شيء من الحياد العلمي.

نذكر من هذه أو تلك عنوان كتاب/إسحاق موسى الحسيني/ : «الإخوان المسلمون : كبرى الحركات الإسلامية الحديثة(4) ونذكر بما استهل به/رفعت السعيد/كتابه عن الإخوان (الإخوان المسلمون في لعبة السياسية) : «كلما برزت الدعاوي الدينية المتعصبة إلى سطح الأحداث في وطننا العربي وكلما تجددت محاولات استخدام الدين سلاحا في لعبة السياسة عادت إلى

الأذهان ذكرى الشيخ حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين، وتجددت الحاجة إلى دراسة معمقة وأكاديمية لفكر واتجاهات وأهداف هذه الجماعة. واليوم، وهذه الجماعة تعاود الظهور محتمية بالتغيرات التي تجري على أرض مصر، وإذ يواكب هذه العودة موجة من الارتداد نحو التعصب الديني ومن استخدام الإرهاب المسلح المرتدي للثياب الدينية من جانب جماعات هي في الأساس نتوءات من الجسد الأصلي لجماعة الإخوان، تصبح هذه الدراسة أكثر ضرورة وأكثر إلحاحاً» (5).

وإذا عدنا إلى مرحلة تأسيس هذه الجماعة تبيننا أنها اصطبغت في مرحلة النشأة بصبغة خيرية(...) ثم تطور عملها حتى شغل الناس فتساءلوا منذ البداية عن حقيقة عمل هذه الجماعة «يقولون نحن في حيرة من أمر الإخوان المسلمين، أهى طريقة صوفية أم جمعية خيرية أم حزب سياسي، وأي شيء يقصدون وفي أي طريق يسرون : أما نحن الإخوان فقد تجاهلنا هذه المسميات وأخذنا في الطريق الأول الذي لا يصلح أمر الناس إلا عليه.... الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسول الله، ونهجنا منهج الإسلام ووسيلتنا إيمان ومحبة وعمل» (6).

ومن كلام الشيخ البنا قوله : «فاعلم فقَّهك الله - أولاً - أن دعوة الإخوان المسلمين دعوة عامة لا تنتسب إلى طائفة خاصة ولا تنحاز إلى رأي عند الناس بلون خاص ومستلزمات وتوابع خاصة، وهى تتوجه إلى صميم الدين ولبه وتود أن تتوجد وجهة الانظار والهمم حتى يكون العمل أجدى والانتاج أعظم وأكبر، فدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملونة بلون وهى مع الحق أينما كان، تحب الاجماع وتكره الشذوذ. وأن أعظم ما منى به المسلمون الفرقة والخلاف، وأساس ما انتصروا به الحب والوحدة، ولن يصلح آخر هذه الامة إلا بما صلح به أولها، هذه قاعدة أساسية وهدف معلوم لكل أخ مسلم وعقيدة راسخة في نفوسنا نصدر عنها وندعو إليها» (7).

نتنظر من كلام كهذا أن الجماعة وعلى رأسها مؤسسها سيخوضون في أمور العقيدة بلغة واضحة بسيطة يفهمها الناس جميعا، ويدققون كبريات

القضايا التي تشغل العقول المتعطشة إلى تقصُّ أبعد الأمور الدين، ومدى صلاح هذا الدين لمعالجة ما يعترض سبيلهم من مشكلات، ما يعترض سبيلهم من التحديات (التقدم - الطائفية - دعوات التبشير)، مما لم يجد عندما صلح أمر الناس بهذا الدين، ولكن في المقابل ماذا وجدنا عند الرجل وجماعته؟ وجدنا ذلك التعميم الإطلاقي الذي حذرنا أنفاً من سوء عاقبته، ومن هذا الاطلاق قول الشيخ البنا : «إن العالمية والقومية والاشتراكية والرأسمالية والبلشفية والحرب وتوزيع الثروة والصلة بين المالك والمستهلك، كلها خاض فيها الإسلام....» ولقد تفتن الشيخ البنا إلى أن هذا الكلام محتاج إلى مزيد التدقيق والتفصيل، ولكنه بدل التفصيل وجدناه يقول : «وليس ذلك مقام تفصيل هذا المقال فإنما نقول ما نعتقد ونبين للناس ما ندعوهم إليه، ولنا بعد ذلك جولات نفصل فيها ما نقوله» (8). وننتظر التفصيل ولكن الرجل - كما قال رفعت السعيد - لم يحدث أن شرح نواياه بوضوح. لعل فيما سنورده ما يزيل اللبس إذ يقول في موضع آخر : «فنحن حرب على كل زعيم أو رئيس حزب أو هيئة لا تقوم على نصره الاسلام ولا تسير في الطريق إلى استعادة حكم الإسلام ومجد الإسلام» (9)، ويوضح شعره الغرض أكثر :

الدين شيء والسياسة غيره دعوة نحاربها بكل سلاح
قد جاء طه عابداً ومجاهداً ذك الحصون وقص كل جناح (10)

كان [طه] عابداً ومجاهداً، إذن فلا بد من الجهاد، ولا بد لهذا الجهاد من جنود، لذلك قال الشيخ البنا : «وتحتاج كذلك الامم الناهضة إلى القوة وطبع أبنائها بطابع الجندي ولا سيما في هذه العصور التي لا ينهض فيها السلم إلا بالاستعداد للحرب، والتي صار شعار ابنائها جميعاً : القوة أضمن طريق لإحقاق الحق»!!!.

هذا كلام يفصح عن النوايا والغاية واضحة.

أما سيد قطب الذي تزعم حركة الاخوان المسلمين بعد اغتيال الشيخ البنا تنظيراً وممارسة، فلقد تأثر بدعوة المودودي وأهم اطروحاته تأثراً واضحاً

ولكنه لا ينفي الاختلاف، لذا من الأصح أن نتعرض لأهم أطروحات أبي الأعلى المودودي (11) الذي شارك منذ كان صحفياً مبتدئاً أي بداية من سنة 1919 من خلال جريدة «التاج» وبصفة فعلية في حركة كانت تسمى حركة الخلافة، ودافع عن الخلافة العثمانية باعتبارها تمثل الخلافة الإسلامية الضرورية لحياة الأمة. وباختصار شديد نقول إن المودودي واصل أبحاثه إلى أن تشكلت نظرتة للعالم وتبلورت فانطلق سنة 1937 إلى «لاهور» حيث التقى بالفيلسوف والشاعر المسلم الهندي/محمد إقبال/. وقرراً معاً أن يحددا موضعاً يكون في الآن نفسه رمزا ومرجعاً هو «دار الإسلام»، يصفها المودودي قائلاً : «دار الإسلام هي مكان بعيد عن العمران، هي مجال حر يمكننا أن نؤسس فيه عالمنا الخاص لأننا نسعى إلى سربلة الأفكار بسربال الفعل الممارسة (12).

ولكن موت محمد إقبال (13) سيجعل المودودي ينتقل مع أهله إلى «البنجاب» بشمال الهند سنة 1938، حيث سيجتمع خمسة «مهاجرين» من بينهم المودودي ليقسموا على الوفاء لهذه «الأمة الجديدة» إلا أن التجربة لم تعمر طويلاً وأجبر المودودي على مغادرة موطن الهجرة بعد ذلك.

وفي سنة 1941 نشر المودودي مثالا قصيرا في مجلة «ترجمان القرآن» جاء فيه : «ينبغي أن توجد جماعة مخلصه في دعوتها، جماعة تنقطع علاقاتها مع كل شيء ما عدا الله وطريقه، جماعة يمكنها أن تتحمل السجون والتعذيب والاعتقال والادعاء عليها بالباطل، جماعة قادرة أن تتحمل الجوع والعطش وآلام النفي أو قل حتى الاغتيال والاعدام، جماعة تعيش على الكفاف وتعزف من تلقاء أنفسها عن الثروات وأن تضحي بكل ما تملك من أجل تأسيس المجتمع الإسلامي والنظام الإسلامي». وجاء في هذا المقال كذلك قوله : «كل من يرغبون في ذلك ينبغي أن يجتمعوا في «لاهور» يوم 25 أوت 1941 لمناقشة التراتيب العملية لإنشاء حركة إسلامية منظمة».

استجاب لهذه الدعوة 75 شخصا وكانوا النواة التأسيسية للجماعة الإسلامية التي أصبح المودودي أميرها وسيظل أميرها إلى سنة 1972.

ومنذ نشأة الباكستان، ركزت الجماعة عملها السياسي على مسألة

الدستور الإسلامي بهدف تكوين مجتمع ونظام إسلاميين أهم خاصية الإقرار بالحاكمية لله.

ومرة أخرى نترك النصوص نتكلم وسنعتد في الأساس على فعل ورد في كتابين مختلفين. الكتاب الأول هو «نظرية الإسلام السياسية»، والكتاب الثاني هو «نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور»، وهو (أي الفعل) في الأصل محاضرة ألقاها المودودي بـلاهـور سنة 1939 ويحمل هذا الفصل عنوان «النظرية السياسية في الإسلام ومبدأها الأساسي» وفيه يقول المودودي : «فالخصائص الأولية للدولة..... ثلاث :

1 - ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لساثر القاطنين في الدولة نصيب من الحاكمية فإن الحكم الحقيقي هو لله والسلطة الحقيقية مختصة بذاته تعالى وحده والذين من دونه في هذه المعمورة إنما هم رعايا في سلطنة العظيم.

2 - ليس لأحد من دون الله شيء من أمر التشريع، والمسلمون جميعا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا لا يستطيعون أن يشرعوا قانونا ولا يقدرّون أن يغيروا شيئا مما شرع لهم الله.

3 - إن الدولة الإسلامية لا يؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون المشرع الذي جاء به النبي من عند ربه مهما تغيرت الظروف والاحوال والحكومات التي بيدها زمام هذه الدولة لا تستحق طاعة الناس إلا من حيث إنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أمره تعالى في خلقه.

هذه هي المبادئ الأساسية للحكومة التي يروم المودودي قيامها، وهو الذي قال في كتابه «الحكومة الإسلامية» : «إن الحاكمية في الإسلام خالصة لله وحده، ولاحظ للانسان من الحاكمية إطلاقا، فليس لفرد أو جماعة قيد ذرة من سلطات الحكم ومن يزعم لنفسه حاكمية جزئية أو كلية فهو لا ريب سائر في الإفك والزور والبهتان، فالله لم يهب أحدا تنفيذ حكمه في خلقه. وأساس النظرية السياسية في الإسلام أن تنزع جميع سلطات الامر والتشريع من أيدي البشر منفردين ومجتمعين، وخلافة الإنسان عن الله لا

يمكن أن تكون حاملة للحاكمية»!!...

وبصرف النظر عن عدم تماسك هذه المقولة حتى من الداخل وعدم تناسقها مع ما يريد المودودي إضافته لتحديد ملامح هذه الحكومة، ينبغي أن ننبّه إلى أن المودودي لم يعرف هذه الحكومة من باب التعريف بالخصائص، وإنما حرص على تحديدها بما ليست منه، فهي ليست ديمقراطية لأن الديمقراطية في رأيه خاضعة للأهواء، فهي حكومة مقيدة بحدود، وتلك الحدود هي التشريع الإلهي، والله لم يخص أمر التشريع بذاته ليسلب الناس حريتهم الفطرية بل خصه بنفسه ضنا به وصونا له من اعتداء المعتدين، ولئلا يضل الناس فيسلكوا طرائق قددا ويقعوا في المهالك⁽¹⁵⁾. وقد حاول المودودي ضرب أمثلة من مظاهر هذا الضلال ولكنه اكتفى بضرب مثال واحد هو مثال منع الخمر والتراجع في منعها نزولا في الحالتين عند رغبة الجمهور دون الاحتكام إلى أمر ضابط يقيد الجميع ويحكم إليه عند المنع أو عند التراجع⁽¹⁶⁾، وهذا الأمر الضابط رآه المودودي في «الحدود» فهي تعين وجهة الحق الصحيح وتهدي الناس في كل مفترق للطرق والمنعطفات إلى طريق الأمن والسلام، وتحولهم عن جميع المتجهات المنحرفة إلى متجه قويم. والله قد رزق الإنسان بهذه الحدود نظاما مستقلا ودستورا جامعا سرمديا لا تغيير فيه ولا تبديل. وقد كتب له أن يبقى ثابتا واضحا إلى يوم القيامة.... «فالدولة الإسلامية عندما يؤسس بنيانها على هذا الدستور ما دام كتاب الله وسنة رسوله باقيين في العالم فلا يمكن تحويل مادة من قوانينه عن مكانها، فمن كان يريد أن يعيش مسلما فإنه محتّم عليه اتباعه والاستمسك به».

موقف المودودي من هذا الدستور الإلهي صارم قطعي، ولمعترض أن يعترض فيذكر المودودي بضرورة مراعاة الواقع والسيورة التاريخية، ولكنّ الأهم من ذلك هو التنبيه إلى أن المودودي يتكلم وكأنه الناطق الوحيد باسم الاسلام وأن فهمه للاسلام وللحدود هو الفهم الصحيح الذي يخول له أن يقصي أو قل أن يخرج عن زمرة المسلمين كل من لا يرى رأيه «فمن كان يريد أن يعيش مسلما فإنه محتّم عليه إثباته والاستمسك به»، والحال

ان كلام المودودي لا يعدو أن يكون قراءة للإسلام، وقراءة خاصة لكلمة «حدود» على وجه الخصوص، فهو كلام يخرج عن باب توضيح العقيدة إلى باب آخر هو باب التعبير عن الاجتهاد الشخصي الذي لا يلزم إلا صاحبه ولا يخول له أن يهب بطاقات الإيمان وأن يصنف المجتمعات إلى جاهلية ومسلمة، ولقد رد/الدكتور النويهي/ (17) على هذه القراءة لكلمة «حدود» وهي ليست قراءة خاصة بالمودودي فقال نتسائلا : «هل احتوى دين على نظام كامل نهائي يحل مشكلاتنا الحيوية ويضع تشريعا يمكن تطبيقه على كل مسألة نشأت وستنشأ من شؤون معاشنا الدنيوي؟».

وكان جوابه كالآتي: «هذا ما لا يزال يدعيه كثيرون من الخطباء والكتاب» إلى أن يقول بعد صفحات عديدة : «إن هؤلاء الذين تطفئ حماسهم على عقولهم فيدعون أن القرآن والسنة ومذاهب القدامى قد سبقت كل التشريعات والقوانين والنظم الحديثة إلى وضع الجواب على كل سؤال والحل لكل معضل، هؤلاء يدلون على جهلين كبيرين : أولهما، جهل بعلم القانون الحديث والتشريعات والنظم المعاصرة ومدى سعتها وضخامتها وتعقدها وتعدد الأقوال والمذاهب والشرح فيها.... ولو أنهم عادوا بعد هذا إلى آيات التشريع في القرآن لما وجدوها تزيد على خمسمائة في أشد الإحصاءات تكثرًا.... ومن المعروف المشهور أن الحدود التي وضعها القرآن قليلة جدا لا تزيد على أصابع اليد الواحدة وهي الحدود الخمسة المعروفة : «حد القتل / حد قطع الطريق وإخافة السبل / حد السرقة / حد الزنا / حد القذف إي سب العفيف والعفيفة بنسبة الزنا إليهما».

ونعود لنلح على ما قلناه آنفا : هل يصح للمودودي أن لا يعتد إلا بقراءته للإسلام، تلك التي بمقتضاها حدد دار الهجرة ودار الكفر. ونتساءل عن منزلة المرأة في دار الهجرة هذه، عن منزلة المرأة في المجتمع الذي يراه المودودي إسلاميا بحسب المواصفات التي ضبطها.

النص - في رأينا - يكشف بما لا يدع مجالا للشك عن موقف المودودي من نصف المجتمع، إذ يقول بصريح العبارة «... بين الله كل ذلك ليحد حياة البيت بحدود حكيمة ملائمة للفطرة البشرية إن تمسك بها الإنسان وعمل

بها وجعل نظام الأسرة قائما ضمن هذه القيود والحدود، أصبح البيت جنة فيها هناء وسرور ولن يتدفق فيها سيل حرية النساء الشيطانية التي تهدد اليوم الامن والسلام العالمي وتندّر المدنية بالانقضاء» (18).

ويضيف في موضع آخر : إن الرجل والمرأة من حيث إنسانيتها على حد سواء..... لكن دائرة عملهما ليست واحدة لانهما مختلفان في قوتهم الجسدية ونظامهما الجسدي وخصائصهما النفسية، وعلم الاحياء يثبت اختلافهما في الصورة والسمات والاعضاء وفي ذرات الجسم والجواهر الخيولينية بخلاياه النسيجية.

فميدان عمل المرأة هو تربية الأولاد وواجبات البيت لا تعمل خارجه إلا للضرورة القاهرة! ولباسها هو النقاب لا تكشف الوجه والكفين إلا للضرورة القاهرة!

والرجل قوأم على المرأة في المنزل وفي المجتمع، فليس لها من حرية الإرادة والاختيار مثل ما للرجل وليس لها مكان في المناصب الرئيسية بالدولة من الإدارة إلى الوزارة، إلى الرئاسة إلى مجلس الشورى - عضوا أو ناخبا (19) - فلقد أوصد القرآن هذا الباب أمام النساء (20).

هذا حكم صارم فقد يظن البعض أنه القول الفصل وأنه فعلا موقف الإسلام، ولكن ها هو الشيخ/ محمد عبده/ يقول : «إن الرجل والمرأة كفتان متماثلان في الحقوق والأعمال كما أنهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل...» إلى أن يقول: «... فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن... إن القوامة التي للرجل على المرأة عندما توجب على المرأة شيئا فإنها توجب على الرجل أشياء» (21).

الإسلام هو الإسلام والقراءات متعددة، تصدر كل قراءة عن قناعات شخصية أو قناعات تلزم جماعة بعينها ولكنها لا تلزم بتطرفها الإسلام ولا تشرع لأي كان مهما كان شأنه أن يحمل السلاح في وجه من يخالفه الرأي، فهذا النوع من التطرف وجدناه أيضا في مصر عند سيد قطب الذي يقدم

خطابه - على جد عبارة/ محمد حافظ دياب/ نموذجاً ممتازاً للسياسي الذي تمثل السياسة هاجسه الرئيسي مسخراً العقيدة لخدمة هذا الهاجس. وهذا ما يعني أن خطابه ينتج في النهاية فكراً سياسياً وظفه منذ بداية تبلوره لخدمة أهداف واقعية محددة(29).

وأهم ما يركز عليه الخطاب القطبي الاعتقاد أن العالم كله يعيش اليوم في جاهلية، هي الجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، والجاهلية تقوم في نظره، على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية وهي الحاكمية، إنها تسند الحاكمية إلى البشر فتجعل بعضهم لبعض أرباباً. وينشأ في اعتقاده عن هذا الاعتداء على سلطان الله في الأرض اعتداء على عباد الله، معنى ذلك أن سيد قطب يميز بين مجتمع وآخر بين مملكة وأخرى على أساس الحاكمية فيها، فإن كانت الحاكمية فيها لله وحده فالمجتمع إسلامي وإن كانت الحاكمية للبشر فإن المجتمع جاهلي.

نحن مرة أخرى أمام فهم خاص للحاكمية، فهم يجرد الإنسان من السلطة والحكم في ميدان خلافته ونيابته عن الله: بسياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران وقد بينت العديد من الدراسات لـ : «معالم في الطريق»(23) ولما جاء حول الآيتين 114 و115 من سورة الأنعام من كتاب : «في ظلال القرآن»(24) أن سيد قطب يفهم الإسلام على نحو خاص لأنه يحكم على التجربة الإنسانية كلها بالفشل ويزعم أنها تجربة جاهلية من منطلق أن مناهج البشر هزيلة وقاصرة، ومن المؤكد أن التجربة الإنسانية لا تخلو من العيوب والسلبيات لكن ذلك ليس مسوغاً لاعتبارها كجاهلية وزرع الشك في قدرات الناس على إقامة أنظمة تخضع باستمرار للمراجعة والتصحيح، لذلك ينبغي التصدي لمثل هذه الأفكار ببسطها بكل موضوعية. أولاً لمحاولة كشف أدواتها ومنطلقاتها وغاياتها حتى يتبين المسلمون عامة والشباب المدرسي والطالبي خاصة مدى اتصالها وانفصالها عن الإسلام بتمكن التماس من هذه الكتب ونقدها نقداً جاداً يتعدى ذكر عناوينها وتصفح فهرسها، وتنظيم الندوات الخاصة بها دون التهيّب منها بفتح حوار حقيقي يبين ما لها وما عليها دون تراشق بالحجج غير مفيد حتى لا

يستحيل الحوار صياحا على حد عبارة /محمد نور فرحات/ (25)، لأن للحوار آدابه وشروطه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: بلورة الموضوع، وثانيها الاتفاق الصارم على الاستخدام الموحد للمفاهيم؛ وثالثها الالتزام بالأدوات المعتمدة للحوار؛ ورابعها الاستعداد المسبق لمغادرة منطقة الرأي الذاتي والاقتراب من منطقة الرأي الآخر لوجه الحقيقة وحدها.

هذا عمل من الأعمال الموكولة للباحثين والدارسين وأولي الأمر ورجال الدين الذين تتعدى نسبتهم إلى الدين المناصب التي يشغلون وذلك لرفع التحديات بأنواعها، هذا عمل جزئي من جملة أعمال شاملة أخرى لا يقل أهمية عن محاولة رفع التحدي التكنولوجي والاقتصادي والثقافي، فمن الجزئيات يتكون الكل والنظرة الكلية تعين على وضع الجزئيات في مواضعها الصحيحة.

وما دمنا نتحدث عن الأعمال الجزئية لا بد أن أشير إلى أن هناك عملا جزئيا لا يقل أهمية عما ذكرنا ويدخل في دائرة اهتماماتنا — فيما أعتقد — وهو التصدي إلى نوع آخر من الكتابات لا يقل خطورة عن الكتابات التي تعرضنا لها آنفا، وأنا أعني كتابا من قبيل: «مختصر مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية» (26)، وهو كتاب صادر عن دار الالباب بدمشق ألفه كما جاء على إحدى صفحاته: [الإمام المجتهد الحافظ أبو الفيض أحمد بن محمد بن محمد بن الصديق الغماري الحسني]، وضبطه وخرج أحاديثه [خالد عبد الرحمان العسكر] المدرس في إدارة الإفتاء بدمشق.

اخترت هذا الكتاب من جملة كتب كثيرة. أولا، لأن عنوانه مغر، ولأن ثمنه غير مرتفع ولأن طبعته أنيقة نسبيا، أضف إلى ذلك أن من ساهم في إخراجه هو مدرس ومسؤول عن الإفتاء؛ معنى ذلك أن الكتاب ليس موجها إلى العموم فحسب، بل ليس من المستبعد أن يكون عرض على طلبة المدارس، وغير خاف الخطر المنتظر في اطلاع هؤلاء عليه أو قل إن الكتاب خطير حتى على غير هؤلاء لما قد ينتقش في عقول من يقرأه من استنتاجات وأفكار الإسلام عامة «وسيد البرية» خاصة منها براء.

جاء على ظهر الكتاب: «وإن معجزات سيدنا محمد رسول الله ثابتة

بالقرآن والسنة الصحيحة، وفي كل زمان ومكان، وإن أعظم معجزاته الكبرى (القرآن الكريم) ثم ما أجراه الله تعالى على يديه من المعجزات وخوارق العادات المرئية الحسية في عهده وزمن نبوته ثم ما أنطقه الله تعالى به من الأمور الغيبية والشؤون المستقبلية مما أطلعه الله عليه من علم الغيب تصديقا لنبوته وتأيدا لرسالته.

وهذا الكتاب مختصر (مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية) الذي نقدمه بهذا الاختصار هو قبس من الأحاديث النبوية التي أخبر بها رسول الله أمته من بعده لما سيحدث من أمور عظام لم تكن حدثت من قبل، ولا سمعوا بمثلها، وذلك ليزدادوا إيمانا بنبوته وبقينا برسالته فوق إيمانهم وبقينهم، وليكونوا على حذر من البدع والفتن التي ستحدث في آخر الزمان. وقد نتساءل : أين الخطر في كل هذا؟

يكفي أن نذكر عناوين بعض الفصول ونقتطف بعض العينات من تخريج الأحاديث وقراءتها قراءة خاصة ليتضح لنا ذلك.

فمن عناوين فصول الكتاب : إخباره بتأميم البترول من أصحابه وهو فصل يلي فصلا آخر تحدث فيه عن إخباره بوجود البترول والحديث المعتمد في هذا الاستنتاج «العبقري» هو : «يوشك الفرات أن ينحسر عن كنز من الذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا!....»

ومن العناوين كذلك : إخباره بإنزال المطر الصناعي - إخباره بظهور آلات التصوير، والحديث المعتمد: قال رسول الله ﷺ : «من اقترب الساعة اثنتان وسبعون خصلة..» إلى أن يقول: «وحليت المصاحف وصورت المساجد وطولت المنائر» فالمساجد لم تصور إلا بعد ظهور آلات التصوير. ففي هذا الحديث، بحسب تخريج صاحب الكتاب دائما، إخبار «بتصوير المساجد بها وباتخاذ صور المساجد وتعليقها في البيوت والدكاكين»!!... (27).

ومن عناوين الكتاب : إخباره بألة المرصد للأهلة والنجوم.... الحديث المعتمد «من اقترب الساعة انتفاخ الأهلة وأن يرى الهلال الليلة فيقال هو ابن ليلتين». وهذا الحديث صريح في الآية المذكورة. فإن انتفاخ الأهلة ليس معناه الانتفاخ الحقيقي وإنما معناه أنها ترى كبيرة في الوقت الذي كانت

ترى صغيرة!...» (28) هكذا...!!

ومن عناوين الكتاب: «إخباره بقلم الجبر الذي ظهر في هذا الزمان يحمله الناس معهم».... «إخباره بظهور الشيوعية»، «إخباره بدولة روسيا وعداء الغربيين لها» — «إخباره بتعلم اللغات الافرنجية واختلاف ألسن العرب»، والحديث المعتمد قوله: «إذا ظهر القول وخزن العمل واختلفت الألسن وتباغضت القلوب وقطع كل ذي رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم» (29).

المجال يضيق عن تصفح هذه التخريجات الملتوية التي اعتبر الرسول منها براء.... ولكنني أتساءل: هل بهذه القراءات للدين سنرفع التحدي ونواجه المصاعب التي تعترضنا في عالم متغير على الدوام، أليس من الأجدى أن نصرف جهودنا لمقاومة النزعة الثبوتية الاطلاقية وأن نفتح باب الاجتهاد الحقيقي لدراسة القضايا المستجدة في المجتمع بمواكبة حركة تطوره؟ ذلك أن حاجياتنا الآن لم تعد هي نفسها حاجيات القرن الثاني أو القرن الثالث الهجري، فلا ضرر ان نفتح الملفات الساخنة والمحرجة أحيانا مثل ملف أسباب النزول وملف الناسخ والمنسوخ وقراءة بعض الآيات التي تثير بعض الإشكال في ضوء تطور مجتمعاتنا خدمة للبحث وخدمة للمسلمين، بعيدا عن كل مظاهر التهجم أو التعصب؛ لعل ذلك يؤدي على حد عبارة/محمد أركون/ (30) «إلى تجديد علاقة المسلمين بنصوصهم العقائدية الأساسية». ولنراهن كما قال/عبد المجيد الشرفي/ «على أن المسلم وهو يعيش مع القرآن وضعا من التأويل مستمرا سيتمكن من تحيين الرسالة القرآنية من جديد بحسب مقتضيات الحداثة وسيلتقي - متجاوزا تقلبات التاريخ وما تفرزه من تحريف يصيب الشعور الديني - سيلتقي بالمعنى العميق للإسلام الذي لم ينزل إلا لإسعاد البشر» (31).

الهوامش والمراجع :

- (1) انظر : كتاب د . محمد النويهي : نحو ثورة في الفكر الديني - دار الآداب، بيروت. ط 1. / مارس 1989.
- (2) يشير فهمي هويدي إلى أنه لا ينبغي أن نستعجل لحظة الميلاد طالما وعينا بضرورة التغيير وطالما أحسنا بأن الروح تدب في الجنين [من مقال، له بعنوان : خطوط عريضة لمشروع إسلامي - كتاب العربي 14، لسنة 1987].
- (3)
- (4) بيروت، ط 1. 1952 / ط 2 1955.
- (5) دار صامد للنشر والتوزيع - تونس 1985 (ص 4).
- (6) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية، ص 152.
- (7) حسن البنا : الرسائل الثلاث - دعوتنا، ص 26.
- (8) لعل ثقافته وانشغاله آنذاك بالتنقل بين مدن مصر وقراها داعيا إلى اعتناق مذهبه وجمع الانصار (ولا أقول داعيا إلى الإسلام) هما اللذان حالا دون هذا التفصيل!!!....
- (9) مجلة النذير، العدد الأول 1357 هـ.